الـوصـيّـة الأخـيـرة

"ماران أثا"

النصّ الذي سمعناه هو خاتمة رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس. لذلك هنا، وبكلمات موجزة، يخطُّ الرسول آخر وصاياه الضروريّة ليتحقّق مضمون وضمانة كلّ ما جاء في الرسالة.

عاش بولس حوالي السنتَين في كورنثوس، والآن من مدينة أفسس يسمع بمشاكل خطرة في حياة الكنيسة التي أحبّها وأسّسها على الإيمان الحقيقيّ بيسوع المسيح. فهناك شقاقات باسم بولس و أبولُّس وتحزّبات. وهناك ممارسات لا أخلاقيّة و أسئلة حول الزواج و البتوليّة تنمّ عن فهم خاطئ. والأهمّ، إنّه يُشيّع عندهم مفاهيم أبيقوريّة عن عدم وجود قيامة وعن إباحات خلقية، بالإضافة إلى الفوضى في توزيع وخدمة المواهب! "فمَن يشكّ ولا احترق أنا ؟".

كلّ هذه المشاكل دفعت بولس الرسول إلى إرسال كلمات حارّة وناريّة، وهنا في ختام الرسالة يضع الأختام من الوصايا الضروريّة. ولقد وجّه بولسُ وصاياه ونصائحه إلى حياة المؤمن الفرديّة أوّلاً، ثم إلى حياة الجماعة، وها هي وصيّته لكلّ مؤمن: أن"يسهر "و "يثبت" ويكون "رجلاً"!

وهذه الوصايا تذكّرنا بمثل الزارع. فالسهر ضروريّ لكي لا تأتي الطيور وتأكل الزرع قبل أن يتجذّر. لا تفيد النعمة ولا البشارة إذا كان قلبنا كالطريق تسلكه كلّ الرغبات فتأتي الطيور وتخطف الزرع قبل أن تتقبّله الأرض. "ليذهب العالم وشهوته ولتأتِ النعمة "! هذه كانت صلاة الكنيسة في أيّامها الأولى.

"والثبات "على الإيمان الحقيقيّ ضروريّ لأنّ زرع الإيمان والكلمة محاط بأشواك كثيرة تريد أن تخنق الزرع عندما ينمو. إيماننا فينا، ولكن ثباته فينا وفي دنيانا التي لا تشجّعه بل وتقاومه، يحتاج إلى جهاد روحيّ. إنّ معركتنا ليست مع سلاطين هذا الدهر بل مع أرواح الشرّ التي في الجوّ... ما نفع الرسالة والكلمات التي خُطَّت بحبرٍ من دموع بولس إذا اختطفت طيورُ الإيديولوجيّات الغريبة أهمّ ما في بذار الإيمان وأسسه كالإيمان بقيامة يسوع وقيامة الأجساد.

لا يتجاهل المسيحيّ الأفكار والعقائد الغريبة بل يواجهها بمعرفة ونقد، فيزيد ذلك ثباته. ولكن هذا يقتضي أن يقارن المؤمن كلّ هذه الإيديولوجيّات تحت ضوء الإيمان الحقيقيّ الذي تسلّمه. ولا ينقد

المؤمنُ معتقدات غريبة إذا كان لا يعرف إيمانه حقّ المعرفة. لذلك يعظ بولس سامعيه "اثبتوا على الإيمان".

وأخيراً: كونوا رجالاً! إنّ صوم القلب وصوم المعرفة والسهر على الرغبات وعلى الإيمان في وسطٍ وزمنٍ لا حدود فيه و لا احترام بل تسوده شريعة الغاب بين الشهوات والإيديولوجيّات، كلّ ذلك يتطلّب رجولة روحية. الرجل لا يخاف، والرجل يصبر، والرجل يواجه ويحارب ولا يهاب ما يظهر من عدم توازن في الجبهات لأنّه يؤمن بما هو أهمّ وأثبت: أنّه على حقّ. الرجل لا يفرُّ ليترك الحقيقة بل يشهد لها حتّى الاستشهاد.

لقد سُميَّ الرسل "حواريّين "، أي أنّهم كانوا يحاورون الناس بالحقّ ولا يحيدوا عنه حتّى لو سكبوا دماءهم شهادة على إيمانهم بهذا الحقّ. هذه هي الأرض الصالحة، الرجولة الروحيّة، التي تتحدّى كلّ طير غريب أو شوك... إنّها تتمسّك بالحبّة التي دُفنت بالأرض إلى أن تعطي مئة ضعفٍ.

أمّا وصيّة بولس للجماعة فهي أوّلاً لمحبّة الأخويّة: "ولتكنْ أموركم كلّها بالمحبّة ". إنّ العمل الجماعيّ والشهادة المسيحيّة لا تقوم إلاّ بتعاون الجميع، وهذا يحتاج أوّلاً للمحبّة. المحبّة ستعطي ختماً على شهود يسوع أنّهم تلاميذه وهي التي توزّع النعمة والفرح على المجاهدين.

وثانياً، بعد المحبّة، الطاعة. نعم، يوصي بولس مسيحيّي كورنثوس بطاعة استفانوس وكلّ الرسل والخدام والمعلّمين: "لمثل هؤلاء ولكلّ مَن يعاون ويتعب" في البشارة. الطاعة هي المدلول العميق على المحبّة للجماعة والشهادة. المحبّة حتّى تفضيل وحدة الجماعة فوق الإرادة أو المصلحة الشخصيّة هي الطاعة.

المحبّة والطاعة هما رباطا الوحدة. الطاعة والمحبّة تضمنان تأسيس الكنيسة ومسيرتها في التاريخ بحسب قلب مؤسّسها الذي أوصى وصيّة واحدة جديدة: "أحبّوا بعضكم بعضاً"، وصلّى بالوداع صلاة واحدة "ليكونوا واحداً". فالشقاق أصلاً هو دليل قاطع على شرخ ونقص في المحبّة.

"إنْ كان أحدٌ لا يحبّ يسوع المسيح" فليكنْ مفروزاً "أناثيما"! هذه هي أساس إيماننا "محبّة يسوع المسيح"، وهذه هي غايته! الألف و الياء، الأوّل والآخر، المبدأ والنهاية! محبّة يسوع تحتاج فعلاً للسهر والثبات والرجولة، كما أنّها لا تقوم دون محبّة الأخوة وطاعة الآباء والمعلّمين!

"ماران أثا": الرب آتٍ، تعال أيها الرب يسوع! "توبوا قد اقترب ملكوت السموات"، كانت هذه العبارة في خاتمة القدّاس والحياة اللتورجيّة للجماعة المسيحيّة الأولى!

تشدّدوا، يقول بولس الرسول، لا يستحقّ الزمن تراخياً، فالمعركة تبلغ منتهاها، "الربّ قريب"، الجهاد قاسٍ لكنّه في النهاية. الحنين إلى المنشود والملكوت الآتي يعزّي القلب ويقوّي الركب المخلَّعة! أوصى بولس أهل كورنثوس ويوصينا بكلّ ما جاء في رسالته. لكنّه يقف هنا في الختام ليقول اصبروا وتقوّوا، نحن على أبواب الغلبة.

"نعمةُ ربّنا يسوع المسيح معكم"، محبّتي مع جميعكم؛ هذه هي صلاة المعلّم القلبيّة الحارّة لمن يتمثّلون به كما هو بالمسيح، إنّها الصلاة التي يرفعها في كلّ ليتورجيا القدّاس مَن يرفع القرابين في زمن يمتد من القريب إلى الأخير، زمن الكنيسة وسهر المؤمنين بالمحبّة والطاعة والحنين، آمين.